الأدب فى المغرب

كتبت مقالات عن الأدب فى المغرب الأقصى ، استشهدت فيه بقصيدة للسلطان عبد الحفيظ فى رثاء كلبه ، وكان مرجعى فى روايتها رسالة « أمراؤنا الشعراء » للعالم الفاضل الأستاذ عبد الله كنون مدير المعهد الدينى بطنجة ، وهى المرجع الوحيد الذى وردت فيه تلك القصيدة السلطانية ، بل تلك القصيدة الإنسانية ، لأنها نمت على شعور إنسانى رفيع فى ناظمها الرفيع بمكانه ووجدانه ، وكان استشهادى بها توفيقا حسنًا يسر لى مزيدًا من الاطلاع على أدب المغرب الأقصى فى العصر الحاضر ، لأنه العلامة مؤلف الرسالة تفضل حين اطلع على مقالى فأهدى إلى طائفة من كتبه القيمة ورسائله الشائقة ، منها ذكريات مشاهير رجال المغرب فى إحدى عشرة رسالة ، والنبوغ المغربى فى مجلدين ، والمنتخب من شعر ابن زاكور ، ومجموعة من المقالات باسم واحة الفكر ومجموعة أخرى باسم التعاشيب ، وهذه بعض آثار مؤلفها الفاضل فى الأدب والنقد والتاريخ .

قرأت طرفًا من هذه الكتب وتصفحت طرفًا آخر ، ولا حاجة بى إلى دلائل غيرها للجزم بأن المغرب الأقصى فى نهضة مباركة وأن الكتابة فيه قد نشطت من عقال الجمود واستقامت على الجادة السوية فى خطوات تتقدم به ولا تزال مبشرة باطراد التقدم ، وأهم ما فى طريق النهضات أن يكون سويًّا قويمًا بعيدًا عن الشطط والانحراف . أما ما عدا ذلك من طول أو قصر فى الطريق ، ومن سرعة أو مهل فى السير عليه ، فدون ذلك من الأهمية ، ولا سيما عند ابتداء التحول من التقليد إلى التجديد .

وآية الاستواء فى طريق النهضة المغربية أنها تعتدل بين إيثار اللفظ واللغة وبين

إيثار المعنى والابتداع ، ففى مقال من مقالات واحة الفكر يتحدث الأستاذ عن عيوب الشعر بالمغرب فيقول : « وللشعر فى بلاد المغرب عيبان : عيب فى المعنى وعيب فى اللفظ ، فأما عيبه المعنوى فهو ما قصر الشعراء الشيوخ أنفسهم عليه من مواضيع مستكرهة لم يبق لها مساغ فى أذواق الناس اليوم كالمدح والرثاء وما إلى ذلك ، وخاصة إذا كان فيمن لا يستحق مدحًا ولا رثاء وهو الغالب .. وأما عيبه اللفظى فهو ما يحاول الشعراء الشبان اقتحامه من مواضيع الشعر الحقيقية ، ولكن لفظهم يقصر عن بلوغ ما يريدون ، وكثير منهم يقصر لفظة ومعناه عن ذلك » .

فهذا الميزان المعتدل بين التقليد والتجديد ضرورى فى مبتدأ كل نهضة ، وهو الكفيل بالموازنة بين النكسة إلى الوراء والاندفاع إلى الأمام ، ومن شواهد الشعر التى تناولها المؤلف بالنقد يبدو لنا أن الأمل فى توخى هذا الاعتدال قريب الإنجاز .

ومن دواعى الطمأنينة على النهضة المغربية أن أقطابها لا يلقون بالا إلى صيحة الإفرنج والمتفرنجين الذين جعلوا ديدنهم دعوة العرب إلى تغليب اللغة العامية على اللغة الفصحى فى الكتابة الأدبية ، وقد أحسن المؤلف الرد على واحد من هؤلاء زعم أن المراكشيين أولى من سائر الأمم العربية بتغليب العامية ، لأن الفارق بين عاميتهم وبين الفصحى أبعد من الفارق بينهما فى الأقطار الشرقية ، ولأن اللغة الفصحى بمعزل عن المرأة فهى أدب ميت لا رجاء فى تمثيله للحياة الطبيعية . وقد قال المؤلف ردًّا على هذا الداعية بعد أن أورد ألفاظاً كثيرة من ألفاظ المعجمات شائعة على ألسنة العامة المراكشيين : « أما المغرب فقد سلم من ذلك التسلط الأعجمى - يعنى الحكم التركى - وبقى محتفظًا بصبغته العربية وزاده قربه من الأندلس وحلول مهاجرة الفردوس المفقود به استعرابًا وشدة تمكن من العربية حتى لقد غبر عليه عهد كان وحده حامل راية العروبة لا ينازعه فيها منازع ، وقد عبر عن ذلك العلامة محمد بيرم الخامس صاحب كتاب صفوة الاعتبار بهذه العبارة البليغة التى هى دليل قاطع

على هذا الموضع : لعمرى إن صناعة الإنشاء فى الدول باللغة العربية كادت تكون الآن مقصورة على دولة مراكش » .

على أننا نرى أن الأستاذ المؤلف قد أعار ذلك اللغط الذى لغط به داعية العامية عن الأدب الحى والأدب الميت وعلاقة المرأة بهما تقديرًا أكبر من قيمته ، فظنه كلامًا يؤخذ به فى تعليل حياة الآداب وهو أبعد ما يكون عن صحة التعليل ، فالأستاذ كنون يقول فى الرد على كلامه هذا : « أما أن الأدب المغربى بعيد عن الحياة الصادقة بسبب بعد المرأة عن المجتمع فتلك مسألة أخرى ولا خصوصية للمغرب بها بل هى عامة فى سائر البلاد الإسلامية ، ومع ذلك فإن تباشير النهضة الأدبية الجديدة تحمل على حسن الظن بالمستقبل ولا سيما عند الأخذ بطبع المرأة وتعليمها كى تمكنها المشاركة والتعاون فى بناء ذلك الصرح الممرد » .

إن رد الأستاذ هنا رد من آمن برأى صاحبنا ومن على شاكلته من أصحاب الجعجعة الفارغة فى أمثال هذه التعليلات ، ولا ندرى كيف يذهب ناقد أوربى إلى مثل هذا الرأى وأمامه تواريخ الآداب الحية فى كل أمة قديمة من أمم الأوربيين ، ودع عنك الشرقيين الذين يجهلهم الإفرنج ويجهلون تواريخ الآداب فى بلادهم . فلا حياة أقوى من حياة الأدب اليونانى القديم وقد اشتهر اليونان الأقدمون بإقصاء المرأة عن المجتمع وعزلها فى البيوت ، ولا حياة أقوى من حياة الأدب الإنجليزى فى عهد شكسبير وقد كانوا يبحثون عن فتيات يمثلن أدوار النساء فلا يجدونهن ويلجئون آخر الأمر إلى إخراج الشبان بأزياء النساء ، ولا حياة أقوى من حياة الآداب القديمة فى الأمم كافة ولم يكن للمرأة فى مجتمعاتها شأن معدود ، ونحسب أن الأستاذ كنون يرى مثلنا أن الأمم العربية تغبط نفسها فى عصرنا إذا أبرزت من الأدباء والشعراء أمثال المتنبى والمعرى وابن الرومى والشريف الرضى وهم عنوان الحياة فى آدابنا العربية ، فلا ينخدعن أحد بتلك الجعجعة التى يلهج بها أدعياء الأوربيين وهم يجهلون حقيقتها أو يتجاهلونها ولا يكلفون أنفسهم فى الحالتين أن يقنعوا الشرقيين

بكلام تساق له الشواهد الصادقة من الآداب الأوربية قبل غيرها ، فربما كان العكس أصدق من ذلك الرأى المردود عند الكلام على أسباب ارتقاء الآداب والفنون ، فاشتراك المرأة فى مشاهدة التمثيل والصور المتحركة وسماع الأغانى لم يكن من أسباب ارتقائها بل كان من أسباب النزول بها بيننا نحن الشرقيين وبين غيرنا من الأمم الحديثة ، وإن تقرير هذه الحقيقة لمن واجب الناقد الذى يتحرى عوامل التأثير فى كل أدب ويأخذ السبيل على خدائع الآراء التى نتلقاها أحيانًا من جانب الغرب بالثقة والقبول .

* * *

وفى كتب الأستاذ كنون أكثر من علامة واحدة من علامات الطمأنينة والأمل ، ففيها أدلة كثيرة على اتصال النهضة المغربية حيث ينبغى أن تتصل بالماضى وبالحاضر : فيها عناية بإحياء الذكريات الماضية والأعلام المنسية ، وفيها عناية بمتابعة النهضات العربية الحاضرة فى البلاد الأخرى ولا سيما المصرية . وقد نقد الأستاذ كنون كتبًا مختلفة للأدباء المصريين نذكر منها على سبيل المثال نقده لكتاب « تاريخ حياة معدة » للكاتب الموهوب الأستاذ توفيق الحكيم ، وفى هذا النقد يقول من الوجهة الفنية إنه « وإنْ سمى كتابه هذا فى مقدمته قصة يعرف أن اسم القصة الاصطلاحى لا ينطبق عليه ، ولهذا تفنن فى اسمه فدعاه تاريخ حياة معدة . إذ سلب لفظة تاريخ دلالتها المطابقية كما يفعل الفن بكثير من الألفاظ » .

ثم نظر إلى الوجهة التاريخية فقال : « إن هناك أشياء لا نوافق المؤلف عليها ، منها أن ينسب كثيرًا من وقائع التطفيل ونوادر أصحابه لأشعب ورفيقه بنان .. ومع أنه تقدم ببنان إلى عصر أشعب فجعله رفيقه وقرن بينهما فى كثير من أحوال العيش وأنواع التحايل على الطعام وموائد الكرام ، فإنه تأخر بأشعب إلى ما بعد عصره بكثير وجعله يحيا فى عهد المأمون بالصراحة وما بعده بالتلويح كما يفهم مما نسب إليه من أخبار وأشعار لغيره » .

وقد أجاد الناقد فى بيان حدود السماح للفن بمخالفة التاريخ حيث قال : « إننا قد نقبل – لوجه الصنعة الفنية – أن ينشط أشعب أو ينحل ما لغيره

ولو تأخر عنه . إلا أننا لا نقبل أن يقام غير مقامه فى حضرة ملك لم يعش فى عصره ، وذلك فى كتاب يطلق عليه ولو مسامحة تاريخ » .

ولم يختم الأستاذ كنون نقده حتى أعطى الغيرة على الفصحى حقها . فأحصى على الأستاذ الحكيم هفوات فى الإعراب يعجبنا ألّا يسكت الناقدون عنها وعن نظائرها فى كل كتاب .

وقد جرى على هذه السنة فى نقد الكتب القديمة التى يقوم على نشرها فضلاء العصريين كما صنع بكتاب الذخيرة لابن بسام ، فقد أصاب فى نقده اللغوى على هذا النحو حيث ذكر بعض المآخذ فقال : « من ذلك كلمة المفاتشة .. وصوابها المنافثة لا سيما وقد عطفت على كلمة المباحثة .. ومن ذلك قول المؤلف : جعل الله الدهر أقصر أيامه والنجوم مراكز أعلامه . جعله المصححون أقصى ولا يناسب مقام الدعاء .. وفى صفحة ٥١ ضبط المصححون لفظة زناته بفتح الزاى وكذا فى سائر الكتاب وهى بالكسر على المعروف وعليه اقتصر فى القاموس .. ومن ذلك هذه الفقرة فى صفحة ١٣٥ : قبح الله زمانًا يقرب إلى اللئيم حصانا وإلى الكريم أتانا . ضبط المصححون حصانًا بالكسر يريدون به الفرس حين رأوه فى مقابلة الأتان وهى أنثى الحمار ، والصواب أن حصانًا بفتح الحاء وهى المرأة الحصينة المتمنعة من العفاف والتصون . قال حسان بن ثابت فى السيدة عائشة .

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

والموضوع أيضًا يعين ذلك حيث إن الرسالة فى أمر مصاهرة .

تلك أمثلة متفرقة ، نراها كافية للدلالة على نصيب الفهم والعلم باللغة من كتابات المدرسة الأدبية التى يمثلها الأستاذ كنون ، فمن الحق أن أقول إن الأستاذ العلامة قد أولانى بهديته النفيسة سرورين مضاعفين : سرور القارئ بمتعة ما يقرأ ، وسرور المتفائل بمستقبل الأمة الشقيقة فى نهضتها المباركة ، وكلاهما مشكور ومقدور ومبرور .

موازين الإنسانية

ما الذى يحبب عمل الخير إلى الإنسان ؟ أجوبة كثيرة أجيب بها هذا السؤال الذى يتجدد مع الزمن ويتجدد جوابه فى كل زمن على نحو يناسبه ، وليس فى نيتنا أن نحصى الأجوبة فى هذا المقال ، إذ هو شرح يطول ولا ينتهى إلى طائل ، ولكننا على يقين أننا نعلم الجواب السخيف بين هذه الأجوبة جميعا ، فإنه على ما نعتقد أسخف من أن يقبل الخلاف عليه ، وذلك هو قول القائلين إن الإنسان إنما يعمل الخير لأنه محمود الأثر بين الناس .

ذلك هو أسخف الأجوبة جميعا بلا خلاف على الأقل بين غير السخفاء .. ! فلو كان الإنسان إنما يعمل الخير لما يلقاه من جزائه الحسن عند الناس لكان الشر أولى عنده بالرجحان والتفضيل ، أو كان الخير والشو عنده مترجحين فى الميزان .

فالناس « أولا » لا يتفقون على معرفة الخير الذى يريدونه ، ومن اتفقوا منهم على معرفة الخير لم يتفقوا على معرفة المخلصين فيه والمزيفين له بالزغل والباطل ، وقد يتفقون على فهم الإخلاص ولكنهم لا يتفقون على الشعور بواجب المكافأة عليه والبذل فى مجازاته ، ومنهم من يحسد أصحابه لما يصيبهم من الثناء فينكر الفضل بمقدار علمه به واستحقاق صاحبه لحسن الجزاء ، وكفى بالموازين الإنسانية اختلالاً ونقصًا فى هذا التقدير أن الشهيد عند أناس مجرم عند أناس آخرين ، وأن قتيل اليوم باسم القانون والشريعة هو القديس غدا ، أو ببركة قانون غير ذلك القانون وشريعة غير تلك الشريعة ، ببركه القانون نفسه والشريعة نفسها بين أيدى أحفاد يلعنون الآباء والأجداد .

ولا تحسب عصرًا واحدًا خلا من أمثلة كثيرة على اختلال الموازين الإنسانية فى تقدير أعمال الخير وتقدير أصحابه وطلابه ومريديه ، ففى كل عنصر ينال الهوان قوم هم أحق الناس بالكرامة ، وينال الكرامة قوم هم أحق الناس بالهوان ، وقد يقع هذا الحيف عن قصد ولجاجة وعناد ، وقد يقع عن جهل وغباء وقلة اكتراث ، ولكنه يقع على كل حال ويتكرر على نتيجة واحدة فى جميع الأحوال .

وقد وقع فى زماننا هذا ، وفى الشهر الماضى ، بين أبناء صناعة واحدة هى صناعة الطب والجراحة ، وكان اختلال الميزان فيه اختلالاً نموذجيًا بحق لا مرية فيه ، لأن الرجلين الموضوعين فى الكفتين يوزنان بصنجة متشابهة يرتفع بها من يرتفع ويتضع بها من يتضع ، ولا يحتاج وزنهما إلى تحويل الفضائل أو تحويل القيم والأسعار ، كما يحدث أحيانًا فى الموازنة بين الصنفين المختلفين .

هذان الرجلان هما فردينان زاوربروخ الألمانى وسرج فورنوف الروسى ، وكلاهما معروف لفريق من المصريين ، لأن زاوربروخ حضر إلى مصر فى بعض المؤتمرات الطبية وفورنوف أقام بالقاهرة زمنًا وكان له مستشفى أو « عيادة » بضاحية شبرا إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى .

ولسنا نريد أن نزيد على تعريف الرجلين بالوصف الواقع المقرر كما دلت عليه الخبرة والخبر ، وأن نعقب على ذلك بمصير كل منهما فى أخريات عمره ، وقد مات أحدهما عن خمس وسبعين ومات الآخر عن خمس وثمانين .

كان زاوربروخ يلقب برب الجراحة ويدعى لعلاج الملوك ورؤساء الدول من كل أمة على اختلاف المذاهب والنحل ، فمن مرضاه جورج الخامس وهندنبرج ومنهم لينين وهتلر ، وقد بلغت به الجراحة الألمانية غاية بجدها يوم استدعاه عاهل الإنجليز بالطيارة لإجراء « عملية » قد تخصص لها الكثيرون من أطباء البلاد الإنجليزية ، ولم يبلغ أحد فيها ولا فى غيرها من معجزات الجراحة مبلغ زاوربروخ بين أطباء الغرب بلا استثناء .

وكان الرجل خالصًا للطب وحده لا يحسن فنون المجاملة أو المصانعة أو الإعلان ، فلا فرق فى خطابه لمرضاه بين الملك ومريض الصدقة الذى يعالج

على نفقة المستشفى ، وكلاهما يناديه « بأنت » خلوًا من حواشى التفخيم والتعظيم .

وكان إذا ركب المصعد للتفتيش على جوانب المستشفى أمر العامل أن يهبط به إلى حجرات المطبخ على حين غرة ، لينظر بنفسه فى الطعام الذى يعدونه للفقراء على الخصوص .

وقد منحه جورج الخامس مليون مارك أجرًا له على عمليته الناجحة التى أنقذ بها حياته ، فهمّ بأن يرفضها لأنها أكبر من أجر طبيب ، ثم قبلها لأنها ليست أكبر من حياة ملك ، وشفع لنفسه فى قبولها بإنفاقها فى وجوه الخير والإحسان ، فبنى بها مستشفاه المشهور ، ووقف الكثير من أسرّته للمعوزين والبائسين ، وكانت قيمة « مليون مارك » فى ذلك الوقت لا تقل عن خمسين ألف جنيه من الذهب .

ويعيش بيننا من شهدوه فى قصر العينى يجرى إحدى عملياته لفائدة الطلاب والأطباء المبتدئين ، وإن شئت فقل والأطباء المنتهين ، فقالوا إنه جبر ضلوع الصدر فى نحو خمس دقائق ، وكانت حركة يديه تسبق النظر وتفوق حدود التصديق ، وسمعت من الحاضرين من يقول مازحًا ، دخلنا ونحن نزعم أننا أساتذة جراحة وخرجنا ونحن ننكر ألقابنا لمن يسألنا . !!

وكانت سلوة الرجل الكبرى أن يجالس الأطفال الصغار ولا سيما المرضى منهم وأبناء المرضى ، فلا يتخيل من يراه بينهم ضاحكا متهللا أنه يرى الرجل الذى يعامل الملوك والأمراء معاملة الأنداد .

ثم كان من نصيبه أن برلين الشرقية آلت إلى حكومة الروس بعد الحرب العالمية الثانية ، وأن الرجل لم يكن من الماديين أو العلماء الذين يخضعون لتهديد الدولة إذا طاب لها أن تكرههم على تأييد عقائدها العلمية ، فكان يقول إن تعليل الحياة بوظائف الجسد جرأة على العلم والحقيقة ، وإنه هو قد وضع يده على كل مغرز إبرة من جسد الإنسان وليس فى وسعه أن يقول بعد ذلك كيف تعمل الحياة ، فأحصاها الشيوعيون الماركسيون عليه ، وتركوه فى شيخوخته يحتاج إلى القوت وما هو لازم كلزوم القوت ، وتخلى عنه أبناء قومه فى برلين

الغربية فلم يفكروا فى إمداده بما يسد الرمق ويدفع الحاجة ، وكان من فصل تلاميذه المصريين أنهم لم ينسوه بما استطاعوه ، وقد كتب إليه أحد هم يسأله ماذا يرسل إليه من اللوازم التى لا يحصل عليها ؟ فكان جوابه الوجيز : كل ما ترسله فهو لازم .. وياله من إجمال يغنى عن كل تفصيل .

ومات زاوربروخ على هذه الحالة فى الشهر الماضى ليلة ذكرى ميلاده ، فكانت هناءته بالموت أطيب من تهانى الميلاد .

* * *

أما فورنوف فهو روسى كما تقدم وكما يدل عليه اسمه ، وقد ولد فى إقليم فورنيز من وادى الدون وتعلم فى باريس ، وصادفه حسن الطالع فجاءت فترة تعليمه فى إبّان النوبة السياسية التى استولت على فرنسا فزينت لها التقرب من روسيا اتقاء للخطر الألمانى من جهة واحتفاظاً من جهة أخرى بسياسة الحيطة مع بريطانيا العظمى قبل عقد الاتفاق الودى بين الدولتين بنحو عشرين سنة .

وقد كانت الأمة الروسية تنظر إلى الطب أيام نشأة فورنوف كأنه نوع جديد من السحر الأسود ، وتنظر إلى الأطباء كأنهم طائفة جديدة من السحرة الذين باعوا أنفسهم للشيطان فى سبيل العلم بسر الحياة وإكسير الشباب ، وما من طفل روسى نشأ فى تلك الحقبة إلا وقد سمع من عجائزه عن أولئك الضالين الذين اشتروا الدنيا بالآخرة وطلبوا طول العمر ومتعة العيش على موارد الظلمات من طلاسم الشيطان المغضوب عليه ، ودرج الأطباء الروسيون فى أواخر القرن التاسع عشر وهم يستمعون إلى هذه الأساطير فظهرت فى أعمالهم ومحاولاتهم ، واشتهر لكل مشهور منهم مذهب فى إطالة العمر واستكناه قوى الحياة فكان متشنيكوف يعلل طول العمر بالإكثار من أكل اللبن الرائب لأنه راقب الفلاحين فى أوربة الشرقية الجنوبية فعرف أنهم يكثرون من أكله وأنهم على جملتهم طوال الأعمار يجاوزون الثمانين ويبلغون المائة فى بعض الأحوال ، وكان بافلوف يعكف على تشريح جثث الحيوان ليعرف منها سر نشاط الحياة وتجاوب الوظائف الحيوية ، وكان فورنوف يتعلم الطب فى إبان اللغط بمذهب داروين والإطناب فى وظائف الغدد الصماء وغير الصماء ، فخطر له أن يبحث

عن سر الحياة أو عن إكسير الشباب من هذا الطريق ، وزعم أنه اهتدى إلى السر ووصل إلى إطالة العمر وتجديد الشباب بنقل غدد القرود إلى بنى آدم ، وذكرت صحيفة « الفجر » الفرنسية أنه كان يقول لأصحابه إنه سوف يعيش إلى سنة ألفين وإنه يرجو أن يبلغ من العمر مائة وخمسين سنة .

وقد تخرج من باريس وبدا له أن يجرب صناعته فى بلاد الشرق فاتخذ له عيادة فى القاهرة ولبث بها زمنًا يستهوى الأسماع بدعوته حتى يئس من الرواج الذى كان يرجوه وقرر العودة إلى باريس ، فانتفع بالرعاية التى كانت تضفيها حكومتها على الروسيين وبخاصة من تعلم منهم فى مدارسها وجامعاتها ، وترقى إلى درجة الرئاسة فى أقسام الجراحة بالمستشفيات العسكرية والمعامل التجريبية ، وكان قد تجنس بالجنسية الفرنسية وهو يناهز الثلاثين ، وبرع فى انتهاز الفرص فاختار له زوجة من شيكاجو تملك الملايين ماتت وهى فى مقتبل العمر على الرغم من تجارب زوجها فى إطالة الحياة ، ثم تزوج بقريبة لمدام « لوبيسكو » التى اشتهرت بمغامراتها فى رومانيا وانتهت علاقاتها مع الملك كارول بالزواج ، وكان اسمها على كل لسان يوم صاهرها الطبيب العالمى الذائع الصيت ، فعلم القاصى والدانى أن مجدد الشباب قد تزوج من فتاة يكبرها بنحو خمسين سنة ، وكان هذا إعلانًا علميًّا عن الإكسير المزعوم ، ولعله كان خليقًا أن ينقلب على صاحبه لو كان من عادة الدهماء أن يحثوا عن النتائج والبراهين ولا يطيروا متعجلين وراء الإشاعات والأعاجيب ، ولكنهم قلما يبحثوا عن نتيجة أو برهان إلا بعد فوات الأوان .

ولقد مات الرجل عن خمس وثمانين ولم يجاوز العمر الذى أحصاه متشينكوف لمن يأكلون اللبن الرائب فى أوربة الشرقية الجنوبية على مقربة من موطن فورنوف ، ولكنه ظفر بالثروة والشهرة وملك الدور والقصور من مخادعة الشهوات والأحلام ، وعرف قبل مماته بسنوات أنه نال كل ما ينال من الدعوة إلى الإكسير الجديد ، فهجر هذه الدعوة وأقبل على دعوة أخرى كانت يومئذ ولا تزال آخذة بالأسماع والألباب ، وهى الدعوة إلى علاج السرطان ،

إما بالجراحة أو بالحقن أو بسر من أسرار النمو الشاذ الذى يعللون به ظهور السرطان فى بعض الأعضاء .

ولا نحسب أن العلم قد أفضى بكلمته الأخيرة فى مباحث فورنوف ، ولكن الحقيقة التى لا جدوى من المكابرة فيها أن الرجل لم ينفع أحدا بتجاربه وأسراره ، وأن مسألة العمر ومسألة الشباب ألصق المسائل بتكوين البنية الحية وأخفاها عن التعليل والتحليل ، فلا يعلم أحد لماذا يقل عمر الفيل عن عمر السلحفاة ولماذا يتم تكوين الحيوان القوى فى بطن أمه خلال أسابيع ولا يتم تكوين الجنين من حيوان ضعيف قبل بضعة شهور ، وليس من اليسير إذن أن ينفذ الطب على يد طبيب واحد إلى السر الذى يحيط بجميع هذه الأمور ويستطاع به التغيير والتبديل فى هذه الخفايا والأطوار .

والنتيجة التى نخلص بها من حياة فورنوف وحياة زاوربروخ ومن المقابلة بين مصير هذا ومصير ذاك ، أن مخادعة الأهواء والأحلام أجدى على صاحبها من مصارحة العقول والضمائر وأن الذى يعمل الخير طمعًا فى أثره المحمود بين الناس خليق ألّا يعمله ولا يفكر فيه ، وإنما يحب الخير من يحبه لأنه أفضل عنده من الشر كيفما كانت عقباه ، ومرجع هذا التفضيل ولا ريب إلى أسباب طبيعية وأسباب تعليمية يحصيها من يشاء ، ولكنه لن يخرج منها فى النهاية إلّا باستحسان الخير لأن الناس يحسنون فهمه ويحسنون تقديره والمثوبة عليه .

هل تغير الناس ؟

لابد من القياس الصحيح لفهم حوادث التاريخ وفهم حوادث الزمن الحاضر ، وقد يكون القياس الصحيح على الحاضر لازمًا لفهم الماضى وتواريخه ، قبل أن يكون القياس على التواريخ لازمًا لفهم الزمن الحاضر الذى نعيش فيه .

ومعنى القياس الصحيح أن ننتظر من كل زمن ما ينتظر منه ، وأن نطلب من كل جيل ما هو خليق به ، فلا نستغرب من بعض العصور أمورًا طبيعية لا وجه فيها للغرابة ، ولا نحكم لبعض الأجيال بالكمال لغير سبب ، أو نحكم عليه بالنقص لغير سبب ، فإن هذا أشبه شيء بالحكم قبل حضور الجلسة وسماع الأدلة والأسانيد من الطرفين .

كل هذا تحصيل حاصل فيما يظهر .

نعم هو تحصيل حاصل ، ولكنه على هذا لم يكن مفهومًا فى كل عصر ، ولا نظنه مفهومًا كل الفهم فى العصر الحاضر ، لأنك لا تزال تسمع من الناس كلما ذكرت المآثر والفضائل ، وأين نحن من هذا ؟ لقد ذهب الزمان بأهل المآثر والفضائل ، ولم يبق من زمان الأولين غير فضلاته وبقاياه !

لا نزال نسمع هذا ولا نزال نقرأ فى الكتب الموقرة التى درج الناس على اقتباس التاريخ من كتابها ورواتها أن الأوائل لم يتركوا شيئًا للأواخر ، وأنه ذهب الذين يعاش فى أكنافهم . وبقيت فى خلف كجلد الأجرب .. وأن الأمور كانت كلها خيرًا وبركة والدنيا دنيا والناس ناس .. أما اليوم فلا خير ولا بركة ولا دنيا ولا ناس !.. .

خطأ ولاشك فى القياس الصحيح ، ويبلغ غرابته أنه من الظهور بحيث

لا يحتاج إلى تنبيه فى رأى الأكثرين اليوم ، ولكنه كما أسلفنا كان هو الصواب الذى يستغنى بذاته عن الدليل ولا يخطر على البال أنه محل للمسألة والاعتراض .

خطأ واضح ولكنه يتقدم إلى الناس بشفاعة واضحة ، فهو خطأ له أسباب كثيرة ، وحسب الخطأ من عذر أو شفاعة أنه يتقدم إلى الناس بسبب وحيه ، وقد كان لذلك الخطأ أكثر من سبب واحد وجيه .

كان من أسبابه أن الأقدمين كانوا على عهد قريب بنظام القبائل التى تعتز بأسلافها وتفخر بعراقتها ، فكل مجدها وفخارها مرتبطين بمن كانوا وما كان ، ولا وجه إذن للشك فى رجحان الزمان الغابر على كل زمان .

وكان من أسبابه أن معاناة العيوب الحاضرة تستر العيوب التى انقضى عليها الزمن ولم يعرفها الأحياء المتبرمون بزمانهم ، ومن دأب الذاكرة على الدوم أن تحن إلى الماضى وتنسى سيئاته وتتعلق بحسناته بل تخلق له حسنات تتخيلها إن لم تكن له حسنات فى الحقيقة ، وشاهدنا على ذلك حكمنا على الحر أو البرد فى السنوات الخالية ، فكل صيف نعانيه هو أقسى من أسلافه ، وكل شتاء هى أقسى كذلك من كل شتاء غبرت ، ولم يكن أبناء العصر الحاضر يعدلون عن هذا الوهم إلا بعد تسجيل الأرصاد الجوية بعدة سنين .

وكان من أسبابه أيضا أن الناس يتخيلون الزمان شخصًا يشب ويشيخ كما تشيخ جميع المخلوقات الحية ، فكل ما غبر فهو شباب وجمال ونضارة ، وكل ما تخلف فهو هرم وعجز واضمحلال ، وقد وقع فى هذا الوهم عقل من أجود العقول بالحكمة فى اللغة العربية وفى كل لغة معروفة وهو شاعرنا الحكيم أبو الطيب المتنبى حيث يقول :

وقت يضيع وعمر ليت مدته ... فى غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه فى شبيبته ... فسرها وأتيناه على الهرم

وهكذا تعددت أسباب الخطأ التى ترجح كل ماض على كل حاضر ، وحسب الخطأ من شفاعة أن تعدد له الأسباب .

إلا أن الماضين أنفسهم قد خرجوا على سلطان الماضى فى بعض ما نظموا

وكتبوا ، فلم يجمعوا على تفضيله ولا على تفضيل الحاضر ، بل أنكروا على الماضى أن يستأثر وحده بكل صلاح ، وأشفقوا على الحاضر أن ينفرد وحده بكل فساد ، وأحسب أن أبا العلاء أحق الناس بهذا الخروج على الإجماع فى هذه القضية الزمنية ، فإذا قيل إن حكيمًا شذ عن الحكماء فى هذا الباب فلا جرم يسبق إلى الذهن اسم حكيم المعرة ، وكذلك يصدق الظن فى كثير مما كتب ومنه هذه الأبيات :

فويحهم بئس ماربوا وما حضنوا ... فهى الخديعة والأضغان والحسد
وكلنا فى مساعيه أبو لهب ... وعرسهم لم يقع فى جيدها مسد
وهكذا كان أهل الأرض مذ فطروا ... فلا يظن جهول أنهم فسدوا

وتشاء الغرابة التى نعهدها فى تباعد المدى بين الآراء أن يكون هذا أيضًا رأى رجل يخالف أبا العلاء فى كثير من الصفات كما يخالفه فى المعيشة والمزاج وهو بديع الزمان صاحب المقامات . فهو أيضا يقول : « ما فسد الناس وإنما اطرد القياس ولا أظلمت الأيام وإنما امتد الظلام ، وهل يفسد الشىء إلا عن صلاح ويمسى المرء إلا عن صباح » ؟ .

وكان الشيخ الإمام أبو الحسن أحمد بن فارس قد كتب إليه ينعى فساد الزمان ، فأجابه بديع « ذلك الزمان » قائلاً : والشيخ الإمام يقول : فسد الزمان .. أفلا يقول متى كان صالحًا ؟ ومضى البديع متقهقرًا من الدولة العباسية إلى الدولة الأموية ، إلى حروب الحسين ويزيد وعلى ومعاوية .

والرمح يركز فى الكلى ... والسيف يغمد فى الطلا
ومبيت حجر[1] فى الفلا ... والحرتان وكربلا

وأمعن فى الرجوع بالزمن إلى ما قبل خلق آدم وقد قالت الملائكة : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » .. وقال قبل ذلك « إنه الحمأ المسنون وإن ظنت الظنون ، والناس ينسبون لآدم وإن كان العهد قد تقادم » .

ومن مفاخر الأدب العربى أن يتقدم فيه حكيم وأديب إلى تقرير هذه الحقيقة

---

(١) حجر بن عدى من أنصار إمام على رضى الله عنه .

قبل عصر المقارنات والمقابلات والبحث فى العناصر والسلالات ، وما برح الزمن الحديث متسعًا لترديد الوهم القديم ، فى أوسع نطاق ، فإن الأذكياء والحمقى من الأوربيين كانوا يعللون فساد كل شىء فى القرن الماضى بنهاية القرن ودخوله فى التسعينات وآحاد التسعينات ، فلا يتحدث المتحدثون عن سيئة من سيئات العصر إلا بادر واحد منهم قائلا : إنه آخر القرن أو آخر الجيل Fin de Siecle وعجب الناقد العالم (ماكس نوردو) لهذه الحماقة فاتخذ منها دليلاً على الفساد والانحلال ، وقال إن قومًا يربطون بين حوادث الأمم وبين رقم فى التقويم المسيحى لقد فسدت أدمغتهم وانحلت عقولهم لامراء ، وراح يستدل على حمق المتحدثين عن ختام القرن التاسع عشر وعلاقته بمساوئ الحضارة مشيرًا إلى القرن الهجرى وهو لا يزال فى القماط كما قال ، فتساءل بما فحواه : لماذا تشيخ الدنيا مثلا لأنها بلغت سنة ١٨٩٩ ميلادية ولا تستقبل الدنيا حياتها فى نضرة الصبا لأنها لم تجاوز سنة ١٣٢٠ هجرية ؟

وتأبى الإنسانية أن تحتكر الحماقة فيها أمة من الأمم ، فقد كان ابتداء القرن الهجرى عند أناس من المشعوذين بشيرًا باقتراب الهداية على يد المهدى المنتظر على رأس كل مائة سنة ، وزعم زاعموهم أنه حديث نبوى مأثور ، ونسوا أن التقويم الهجرى كله لم يكن معروفًا على عهد النبى عليه السلام !

* * *

كلا لم يتغير الناس ولم يفسد الزمان بعد صلاح ، ومن فسد منهم فهو لا يفسد لأنه اقترن برقم من أرقام السنين المتأخرة ، ومن صلح منهم فهو لم يصلح لأنه اقترن بأرقام الآحاد فى تقويم الهجرة أو تقويم الميلاد ، ولكنهم يفسدون ويصلحون لأسباب قد تكون فى كل زمن أو قد كانت فى كل زمن ، ولم يحتكرها قط ولن يحتكرها أبدًا تاريخ سابق ولا لاحق فى حياة الإنسانية ، فكل ما بينها من الاختلاف هو اختلاف حوادث وأفعال ، لا اختلاف أعوام ولا اختلاف تقويمات ..

* * *

كتبت فى مقال الأسبوع الماضى أقول إن أهل الخير لا يحبون الخير لأنه

محمود الأثر بين الناس ، ولكنهم يحبونه لأنه أفضل عندهم من الشر ، ولذلك التفضيل أسباب طبيعية وأخرى تعليمية يحصيها من يشاء ، ولن يكون منها أن الإنسانية تحسن الجزاء .

وعدت إلى القاهرة بعد رحلة إلى الإسكندرية فوجدت فيها تعليقًا من قائل يقول : « إنها الإنسانية فى هذا الزمن لا فى كل زمن ، وما أبعد الحاضر من الماضى فى حب الخير وجزاء المحسنين » !.

كلا ياصاحبى : ما فسد الناس وإنما اطرد القياس . أو كما قال أبو العلاء ..

وهكذا كان أهل الأرض مذ فطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

ولو كان للمريخ أهل لجاز لحكيم المعرة أن يقول : وهكذا أهل المريخ !..

الصَّمدُ

تحدث صاحب السمو الملكى الأمير محمد على إلى مندوب صحيفة يومية فتناول الحديث موضوع ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية ، وقال سموه إنه اطلع على عدة تراجم باللغتين الإنجليزية والتركية فوجدها جميعًا لا تفى بالغرض المقصود ، لأنها بين ترجمة حرفية أو ترجمة للمعانى ، وقد بدأ سموه بترجمة فاتحة الكتاب وهى دعاء المسلم الذى يستقبل به ربه ، وترجمة سورة الإخلاص وهى سورة الوحدانية ، فقال سموه إنه لم يجد فى الإنجليزية كلمة أو كلمات تؤدى المعنى المقصود من كلمة « الصمد » ، وإن من المستحيل أن يترجم القرآن الكريم ترجمة تحل محله عند من يجهلون العربية .

والواقع أن كلمة « الصمد » من الكلمات العربية التى تصعب ترجمتها إلى لغة أجنبية ، بل يصعب الاتفاق على حصرها فى معنى واحد ، لأن معناها اللغوى قد اتسع لتفسيرات كثيرة فى أقوال الفقهاء والمتكلمين وفلاسفة المسلمين ، وقد أحصى الإمام ابن تيمية عشرات من هذه الأقوال وبدأها بإيراد أقوال السلف الذين قصروا كلامهم ، « أولا » على معناها اللغوى كما كان يفهمه العرب كابن مسعود وابن عباس والحسن البصرى وسعيد بن جبير وعكرمة والضحاك والسدى وقتادة وسعيد بن المسيب ، وقد اتفقوا على أن الصمد هو الذى لا جوف له ولا حشو ولا أحشاء ، وقال بعض هؤلاء الثقات كما قال غيرهم إنه السيد الذى ليس فوقه أحد والذى يصمد إليه الناس فى حوائجهم وأمورهم ، ومن معانيه الصمود للقصد والثبات عليه فلا يكل الصمد ولا يعيا ، ومن هنا فسره بعضهم بالدائم الباقى ، وعقب ابن تيمية على ذلك قائلاً إن

البقاء والدوام من تمام الصمدية ، يريد بذلك أن هذه الصفة تفهم من المعنى ولا تفهم من اللفظ فى مدلوله اللغوى كما تداولته ألسنة العرب .

والظاهر أن مادة المصمد والمصمت من أصل واحد ، وأن المصمد أو المصمت هو الذى يثبت ويبقى ولا ينكسر ، بخلاف الأجوف وما بداخله الحشو والإضافة ، ويأتى بعد ذلك معنى الصمود أى الثبات لمن يقصده ومعنى القصد عامة فى مختلف المطالب والأغراض ، والسبب قريب بين من يصمد لمطالب الناس وبين المصمود المقصود الذى يتجه إليه الناس حين يطلبون ما يجابون إلى طلبه ، ولم يكن العرب يفهمون من كلمة الصمد أنها وصف لمن لا يموت ، فإنها قيلت فى مقام الرثاء كما قيل فى رثاء عمرو بن مسعود :

ألا بكر الناعى بخير بنى أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وروى ابن تيمية بيتًا آخر فى مثل هذا المقام وهو :

علوتـه بحسامى ثم قلت لـه خذها حذيف فأنت السيد الصمد

ولهذا قال ابن تيمية أن صفة الدوام من تمام الصمدية فى حق الإله ، وأصبح المفهوم منها بالنسبة إلى الصفات الإلهية أن الصمد كما قيل : « هو الأول بلا عدد والباقى بلا أمد والقائم بلا عمد ، الذى لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأفكار ولا تبلغه الأقطار وكل شىء عنده بمقدار » .

وهكذا تسلسل المعنى من المصمت المصمد الذى لا ينكسر ، إلى المصمد الذى يثبت على القصد ، إلى المصمد الذى يثبت للقصد ويقصده الناس فى الحوائج والأمور فلا يعيا بما يقصدون ، ووجب أن يكون للمعنى الإلهى ما يجب فى حق الإله من صفات الكمال والغنى والاستجابة للدعاء ، ولكن الكلمة فى اللغة لا ترادف الدائم أو الباقى أو القيوم من أسماء الله الحسنى ، كما أن كلمة اللطيف لا ترادف هذه الأسماء فى الدلالة اللغوية ، ولكنها حين يوصف بها الإله تدل على الذات الموصوفة بالدوام والبقاء والصمدية ..

وقد حار المترجمون فى نقل الكلمة العربية إلى كلمة تقاربها من اللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، مع حرصهم الشديد على الدقة الحرفية فى ترجمة آيات

الكتاب ، ثم أجمعوا - ما عدا المسلمين منهم - على ترجمتها بالأبدى الأزلى ، كما فعل جورج سيل وريتشارد بل وبالمروردويل من المترجمين الإنجليز ، وكما فعل إدوارد مونتيه من المترجمين الفرنسيين ، وعلمت ممن اطلعوا على الترجمات الألمانية أنها ترجمت بهذه الدلالة فى أكثر من نسخة ، كأنهم جعلوها تكريرًا لصفة الدائم الباقى القيوم وهى فى الحقيقة ليست بتكرير لها بل هى صفة منفردة بمعناها الذى ألمعنا إليه ، وجملة معناها هذا أنها تجمع بين البقاء والغنى واستجابة السؤال وقصد القاصدين بالدعاء والصلاة ، وعلى هذا المعنى ترجمها المسلمون فنقلها محمد على الهندى بجملة دلالتها أى « الذى يعول عليه الجميع » وقال إنه استند فى هذه الترجمة إلى حديث مرفوع إلى النبى عليه السلام ، وإنه عليه السلام سئل : « ما الصمد يارسول الله » فقال : هو السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج » .

وعلى هذه الرواية يكون السائلون من الصحابة قد سألوا عن الدلالة الدينية ولم يسألوا عن الدلالة اللغوية وكفى ، فإنهم بما يعلمون من ألفاظ لغتهم ومعانيها فى غنى عن السؤال .

كذلك فعل الإنجليزى المسلم الأستاذ مارمدوك بكثال فترجمها بعبارة تؤدى معنى « الذى يتجه إليه الجميع بالطلب على الدوام » .

ومن مضحكات المستشرقين أن « هرشفيل » توهم أو أراد أن يتوهم أن الصمدية متأثرة بآيات « سماع » من التوراة ، كأنما الوحدانية عقيدة عرضية فى الإسلام ، فيقال عنها إذا وردت مرة أو مرتين فى كتاب المسلمين أنها مأخوذة من هذا المصدر أو ذاك .. !

أما آيات « سماع » فهى الآيات التى وردت فى الإصحاح السادس من سفر التثنية وأوجب أحبار اليهود حفظها على كل طفل وكل شاب من المتعلمين ، وهى : « اسمع ياإسرائيل . الرب إلهنا رب واحد . فتحب الرب إلهنا من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ، ولتكن هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها اليوم على قلبك ، وقصها على أولادك وتكلم بها حين تجلس فى بيتك وحين تمشى فى الطريق وحين تنام وحين تقوم » .

وقد جاء فى كتاب السنن القويم فى تفسير أسفار الكليم أن « السيد المسيح شهد بأن هذه الآية وما بعدها هما الوصية الأولى والعظمى فى الناموس ، وفى التلمود أنه يجب أن تكون أول كلمات الإنسان صباحًا اسمع ياإسرائيل » .

ولا خلاف فى أن هذه الوصايا أقرب ما جاء فى العهد القديم إلى العقيدة الإسلامية ، ولكن المحقق أن « سماع » والصمدانية شيئان مختلفان ، ولعل صاحبنا المستشرق قد أثرت فيه تصحيفات العجمة فأوحت إليه أن التشابة بين « سماع » و« الصمد » حين يقع فيها التصحيف على اللسان الأعجمى يدل على مصدر واحد ، لأن اللسان الأعجمى يصحف سماع والصمد إلى « سما » ولا ينطق الصاد أو العين أو الحرف الأخير من الكلمة فى كثير من الأحيان ، وقد وجد من المستشرقين من ترجم « الصعيد » فقال إنه مصر السعيدة قياسًا على العربية السعيدة ، فلا عجب أن تتقارب الصمد والسماع عند بعض هؤلاء « المجتهدين » الألباء !

ولابد أن حضرة صاحب السمو الملكى قد عرضت له فى مراجعة الترجمات أمثلة كثيرة لهذه الأخطاء التى يقع فيها المترجمون تارة عن سوء فهم وتارة عن سوء نية ، فانتهى إلى الرأى الصواب حين أوصى العاملين من العلماء « ألّا يضيعوا وقتهم فى ترجمة القرآن نصًّا ، وأن الفائدة العظمى تكون فى تقديم حكمة القرآن وما تضمنه من معان سامية ، وحسب المعنيين بتعريف الأجانب به أن يترجموا آدابه وتوجيهاته » .

ويبدو لنا أن هذا الرأى هو نهاية كل بحث فى هذا الموضوع من وجهة النظر الإسلامية . وقد أراد نظام حيدر أباد قبل عشرين سنة ونيفٍ أن يعهد إلى إنجليزى مسلم بترجمة القرآن فتولاها الأستاذ مدوك بكثال وصدرت الترجمة بعنوان معانى القرآن المجيد أو ترجمته التفسيرية وفى مقدمتها كلمة يقول فيها المترجم : « إن القرآن لا يترجم ، وهذا هو رأى الشيوخ السلفيين ورأى كاتب هذه السطور ، وقد نقل الكتاب هنا حرفًا حرفًا وبذل فى نقله كل مجهود لانتقاء اللفظ الموائم للمعنى ، ولكن الثمرة لم تكن هى القرآن المجيد ذلك النسق العالى الذى لا يقبل المحاكاة ويكفى مجرد الإصغاء إليه لاستجاشة الدمع والهيام ، وكل

ما هنالك أنها محاولة تتحرى جهد المستطاع أن تقتدى ببعض بلاغته فى اللغة الإنجليزية ولكنها لن تحل محل القرآن بالعربية ولم يكن المراد بها أن تحل محله » ..

إلاّ أن هذه الترجمة قد اشتملت على المصحف كله من سورة البقرة إلى فاتحة الكتاب ، وهى - على اعتقادنا أنها أفضل الترجمات التى أطلعنا عليها - لن تغنى عن تقريب كتاب الإسلام إلى عقول الغربيين بالطريقة التى يوصى بها الأمير الجليل ، وهى طريقة تنسيق الآيات والأحكام فى المسائل التى تشغل عقول الأمم الغربية فى هذه الأوقات .

فمن النادر جدًّا أن ترى اليوم أوربيًّا أو أمريكيًّا يتناول المصحف ليقرأه ، أو يتناول الأناجيل نفسها ليقرأها ، ولكن لا يندر أن ترى فى الغرب القراء الذين يشوقهم أن يطلعوا على أحكام القرآن فى حقوق الإنسان مثلا أو فى النظام الاجتماعى أو نظام الحكومة أو طبقات المجتمع ، أو أخلاق الأسرة والبيت ، أو آداب الحرب والسلام بين الأمم ، أو آداب المعاملات بينها على الإجمال ، أو الموازنة بين القومية والعالمية والإنسانية ، وما شابه هذه المسائل التى تواجه العقل الغربى كل يوم ويهمه أن يعرف كيف حلها أصحاب الأديان وكيف يقترحون حلها فى الزمن الأخير .

فإذا وجد الغربيون أمامهم كتابًا تجمع عناوينه هذه المعضلات العصرية منسوبة إلى دين يسمعون به ولا يعرفون تفصيلاته شاقهم أن يطلعوا عليه وأن يقابلوا بين ما يقترحونه لعلاج تلك المعضلات وما اقترحه لعلاجها كتاب يدين به واحد من كل سبعة من بنى الإنسان ، وحسب العالم الإنسانى من نتيجة لهذا العمل أن تتقارب فيه الوجهات وأن تزداد فيه أسباب التعارف وتقل فيه أسباب التناكر والتنافر ، وأن يعرف العالم الإنسانى حقيقة الإسلام والمسلمين من مصادرها لا من أقاويل المغرضين والمروجين للأباطيل ، وإذا كان على كل أمة واجبها فى التعريف بنفسها والتمهيد للتعارف بين الأمم كافة فهذا الواجب لا ريب من حصة الأمم الإسلامية قبل غيرها ، ولا عذر لها من التقصير فيه لأنها قادرة عليه .

بين التقدم والتَّمرد

ما أعظم الحقيقة وأصعب الإحاطة بها من جميع جوانبها .

لو كانت صغيرة سهلة لرآها كل إنسان على صورة واحدة ونحو واحد ، ولم يختلف الناس على صورها وأنحائها ، ولكنها تعظم وتتسع حتى لا يرى الناظر منها غير بعض أجزائها ، فلا يتفق ناظر وناظر ، ولا يزال الخلاف قائما بين من ينظرون ، ودع عنك من لا ينظرون .

وأشد الخلاف فيما نعتقد هوالخلاف بين أجزاء الحقائق لا بين الحقائق والأباطيل ، فهو الخلاف بين من يرى نصف الحقيقة ومن يرى نصفها الآخر ، أو بين من يرى ربعها أو خمسها أو عشرها ويحتجب عنه سائرها الذى يراه غيره ، فلا سبيل بينهم إلى اتفاق.

لا خلاف بين البصير والأعمى ، ولكن الأمر بينهما ينتهى إلى التصديق المطلق أو التكذيب المطلق ، وإنما يكون الخلاف بين من يبصر ومن لا يبصر ، وبين من رأى شيئا وغاب عنه شيء ، ولو استطاع الناس جميعًا أن يبصروا الأشياء جميعا لما كان بينهم سبيل إلى الخلاف ، ولكنهم لا يستطيعون .

هل صلح الناس ثم فسدوا أو فسد الناس ثم صلحوا ؟

هما نقيضان من قال بأحدهما لم يقل بنقيضه ، ولكن الذين يقولون بالنقيض كثيرون ، وكلهم من بنى الإنسان .

كتبنا عن فساد الزمان فجاءنا من بعض القراء تعقيب يقول فيه إن الفساد فساد الأواخر أو فساد الزمن الحاضر ، ولم نفرغ من إجابته حتى جاءنا تعقيب ن قارئ آخر يقول فيه : إن الزمن القديم زمن الرجعية والجمود وزمن الغفلة

والجهالة ، وأن الذى نسميه « فساد أخلاق » فى الزمن الحاضر إنما هو علامة التقدم والحرية ، لأنه تمرد على الأخلاق العتيقة والعقائد المتعفنة ، فلا يوصف الجيل الحديث بالفساد بل يصدق عليه وصف التمرد على الفساد والاستعداد للصلاح .

كلام فيه نصف الحقيقة أو ربعها .. وهذه هى الآفة فى كل كلام ، فلو علم أصحاب هذا الرأى أنهم يعرفون نصف الحقيقة أو يعرفون ربعها لما كانت هناك آفة بينهم وبين أحد ، ولكنهم يعرفون ما يعرفون وينكرون على الآخرين كل معرفة يدعونها لكثير من الحقيقة أو قليل ، ولعل فى ذلك خيرًا كما يعتقد بعض الحكماء المعاصرين ، فإن الحماسة للرأى ضرورية فى كل عمل يخلص له صاحبه ويغار عليه ، وقلما تدخل الحماسة قلبًا يفترض لغيره حق المخالفة وحق النظر إلى وجهة غير وجهته ، فإن لم يتعصب لوجهة نظره فما هو بمتجه إليها ولا هو بغيور عليها ، وفى الغيرة والحماسة عوض من قصور النظر أو من العجز عن الإحاطة بالحقيقة فى جملتها ، فليكن بيننا المتعصبون إذن كما يكون بيننا المتبصرون المتدبرون ، فلن تضيق الدنيا بهؤلاء وهؤلاء ، وإن ضاقت بفريق منهم فهو خارج منها لامراء .

ونعود إلى صاحبنا الذى يقول إن العصر الحاضر خير وتقدم . لأنه عصر التمرد على القديم ، فهذا كما أسلفنا هو نصف الحقيقة أو ربعها الذى لا يغنينا عن النظر إلى بقيتها ، فما هى بقيتها ؟ .

بقيتها أن التمرد فى ذاته رذيلة وليس بفضيلة ، ونقص وليس بكمال ، لأنه صفة العشب الذى ينبت فى البرية ، والوحش ينمو فى الغابة ، والهمجى الذى ينشأ بغير تربية وبغير تهذيب والطفل الذى يهمله أبواه وتهمله البيئة التى درج فيها .

فالتمرد نقص وليس بكمال ، وشىء يدركه العاجز بغير عناء ، لأنه مترتب على الإهمال والترك وفقد التربية أو سوء التربية ، وليس بالقدرة التى يفخر بها المتمردة فى جميع الأحوال .

لا قدرة فى التمرد لذاته ، وإنما يقترن التمرد بالقدرة حين يتمرد الإنسان ليهدم عن معرفة ويبنى عن معرفة ، ولو كان كل هدم تمردا محمودًا لكانت الغازات فى جوف الأرض سيدة المتمردين والمتقدمين ، لأنها تنطلق مع الزلزال فتهدم عن الشمال وعن اليمين .

وليس هذا التمرد الذى يشير إليه صاحبنا مزية من مزايا القرن العشرين لم يسبقه إليها قرن من القرون التى يسميها بزمان الرجعية والجمود ، فمن قديم الزمن تفشو نزوات الهياج والعنف حيث تنكب الأمم بالإباحة والانطلاق مع الشهوات والنزعات على اختلافها فى أعقاب الحروب .

وقد ترجع عشرين قرنًا إلى الوراء أى قبل ميلاد السيد المسيح فنرى أطوار هذا التمرد كما نراه فى هذا القرن العشرين الذى يقال عن كل طور من أطواره إنه علامة على التقدم والارتقاء ، فقد وصف المؤرخ اليونانى « ثيو سديد » ما حدث بعد الحرب الفارسية اليونانية فقال « إن معانى الكلمات لم تبق كما كانت بل تغير مدلولها فى أذهان الناس ، فأصبحت العربدة التى لا روية فيها تؤخذ كأنها الشجاعة المعول عليها ، وأصبحت الأناة الحازمة تؤخذ كأنها الجبن المستور ، وقيل عن الاعتدال إنه دعوى المهازيل ، وظن بالذكى الألمعى أنه هو الذى لا يعمل عملاً فى أمر من الأمور ، ويعتبر التخبط فى الهياج كأنه الواجب المفروض والتدبير المحكم ، وكأنه ذريعة الهزيمة والنكوص ، وكل من تكلم فى غضب وثورة فهو مصدق وكل من عارضه فهو متهم ظنين » .

ولا موجب للحيرة فى علة هذه الأطوار الجامحة ، فإن أوقات الحروب هى الأوقات التى يستخدم فيها الكلام لإهاجة الشعور لا لإقناع العقول ، وهى الأوقات التى ينشأ فيها الأبناء بغير رعاية ولا كفالة من الآباء والأولياء ، وهى الأوقات التى تختل فيها موازين الثروة وتضطرب فيها دعائم المجتمع ، ويتلهى الناس فيها أمام خطر الموت بالتهافت على الشهوات والملذات ، فلا تبقى فيها معانى الكلمات ولا الأعمال كما كانت فى أذهان الناس على حد قول المؤرخ البليغ « ثيو سديد » .

ولعلنا نلمس مشابه هذه الحالة فى مصر قبل ابتداء القرن العشرين

فيما حدث بعد الثورة العرابية وقد وصفه الأستاذ الأمام محمد عبده فقال : « سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم وشهوات تقضى وغيظ يحتدم وخشونة تنفذ . تلك سنة الغدر والله لا يهدى كيد الخائنين » .

ولم تختلف الحال بين هذين الزمنين فى حرب من حروب الشرق والغرب بعد غارات الرومان أو معارك الصليبيين أو الثورة الفرنسية أو فتن الأمريكيين للدفاع عن الوطن كله أو لتوحيد الولايات فى وطن واحد ، فكل ما حدث من أطوار التمرد قبل الميلاد أو بعد القرن العشرين متجدد فى كل فتنة من تلك الفتن وكل حرب من تلك الحروب .

فإذا أصيبت أمة بمحنة من هذه المحن الجائحة فتلك نوبة تأسف لها وليست هى بشارة من بشائر النهضة تقابلها بالتمنى والترحيب ، فشتان التمرد الذى هو نقيض الحجر والقيد ، والتمرد الذى هو نقيض القوة الخلقية وضبط النفس والقدرة على رياضة الشهوات وقيادة النزعات والنزوات ، وخير علامة للتفرقة بين الخليقتين أن التمرد الصالح يدين نفسه بواجب يؤديه أو واجبات كثيرة يؤمن بأدائها ، وأن المتمرد الفاسد يتحلل من جميع الواجبات ويعفى ضميره من جميع الفروض ويعيث فى الأرض فسادًا لأنه عاجز عن الصلاح .

ومهما يكن من تغير الأزمان فلن يجىء الزمن الذى يصبح فيه الناشئون فى جيل من الأجيال أهلاً للحكم والسياسة بفضل الهياج والحماسة ، لأن الهياج والحماسة اندفاع إلى ناحية واحدة ، والحكم تمييز بين مختلف النواحى والأغراض ، وإذا ادعى جيل من الأجيال أنه أوفر نصيبًا من العلم والحرية كما تدعى طائفة من الجيل الحاضر فالواقع أن حقهم فى الحكم والسياسة أقل جدًّا من حقوق أمثالهم فى الأجيال الغابرة ، إذ كانت مهمة الحاكم فيما مضى أهون كلفة وأيسر أداة من مهمة الحاكم فى هذا القرن العشرين خاصة ، وهو القرن الذى يحتاج الحكم فيه إلى الإحاطة بأنواع من المعلومات لم تكن مطلوبة من الحاكمين قبل بضعة قرون ، فمعلومات الناشئين فى زماننا قسط ضئيل إلى جانب المعارف العالمية التى تحيط بالآفاق الواسعة من علوم الاقتصاد والتاريخ

والأخبار المتناقضة والدوافع الاجتماعية والفردية وضروب المعاملات على اختلافها ، وقد كانت الشمعة تكفى لإضاءة الحجرة الواحدة فأصبحت ظلامًا مطبقًا أو كالظلام المطبق فى هذه المتاهة التى تلتوى فيها السراديب والحجرات والأنفاق فلا تضاء بعشرات الشموع والمصابيح .

إن التمرد سهل يسير والتقدم صعب عسير ، وحقيقة النسبة بين التمرد والتقدم أن التمرد ثمرة إهمال ونقص الفهم والنظام كما يتفق فى أطوار الهمجية ودوافع الغابة الوحشية ، وأن التقدم ثمرة العناية وزيادة الفهم والقدرة على رياضة النفس وعلاج الأهواء ، وحتى الفوضى التى تقترن بالتقدم هى الفوضى التى تخرج على واجب مهجور لأنها تدين نفسها بواجب أصدق منه وأحق بالرعاية والتقديس .. أما التحلل من الواجبات جميعاً فلا تقدم فيه ولا جهد فيه ولا خير فيه .

حكم السن

حكم السن هو التفسير الذى فسر به كاتب الخطاب « .. رشوان » أننى أنكر التمرد الآن وقد كنت على قوله أول المتمردين فى سن الشباب .. وإلا فأين أنا اليوم من ثورتى بالأمس على أصنام الأدب وأصنام السياسة .. لولا السن لما ألقيت السلاح الذى كنت أشهره ولا ألقيه من يدى لحظة فى كتاباتى الأولى ..

مثل هذا الاعتراض أو هذا الاستفسار جدير بالتعقيب والمناقشة لأنه صريح ، ولأنه يشتمل على فكرة ، ولأن المناقشة فيه تنتهى إلى بيان حقيقة أو وجهة نظر .

لقد كان يسيرًا أن أجيب عنه قائلا : ولم لا ؟ لم لا يختلف الرأى أو تختلف النظرة إلى الأمر باختلاف السن أو باختلاف الزمن على إطلاقه ؟ .. إذا حدث هذا لم تكن فيه غرابة ولم يكن فيه مساس بالرأى المتغير أو بصاحب الرأى الذى غيره ما بين الشبيبة والشيخوخة ، أو مابين زمان انقضى وزمان لا نزال فيه .

كان يسيرًا أن يجاب ذلك الاعتراض بهذا الجواب ، ولكنه يفيد شيئا واحدًا ولا يفيد كل شىء فى هذا الموضوع : يفيد أنه يبطل الغرابة ولكنه لا يفيد أنه يظهر الحقيقة ، وقد يكون الأمر من أغرب الغرائب وهو صحيح ، ويكون الأمر خلوًا من كل غرابة وهو خلو من الحق والواقع فى الوقت نفسه ، فليس زوال الاستغراب بيانا للحقيقة فى أمر من الأمور .

كذلك لا ينفى الرأى أنك تعرف سببه ولا يثبته أنك تعرف سببه ، فليس

التعليل أو ذكر الأسباب وسيلة من وسائل النفى والإثبات ، لأن الباطل له سبب والحق له سبب ، فلا بد من التمييز بين الباطل والحق بعد معرفة الأسباب أو بعد التعليل والتأويل .

إنك تقول : إن فلانًا قد أبلغ عن جريمة من الجرائم لأنه عدو لمن ارتكب تلك الجريمة ، فأنت تعلل التبليغ ولكنك لا تنفى وقوعه ولا تنفى صحته وصدقه ، ويظل التبليغ صادقًا بعد أن علمنا سبب التبليغ .

إنك تقول إن فلانًا يثور لأنه شاب فلا تفند الثورة ولا تؤيدها بهذا التعليل ، وتقول إن فلانًا يعترض على الثورة لأنه شيخ فلا يفنده ذلك ولا يؤيده ، وإنما يأتى التفنيد والتأييد فى الحالتين من مناقشة الأسباب لا من مجرد ذكر الأسباب .

تعجبنى كلمة للكاتب « ستيفنس » وأعيدها لكل من يحاول أن يلوم الشباب بمزاج الشيوخ ، فقد قال ذلك الكاتب وأصاب : « إنك تسوغ شعور الشباب ولا تنقضه حين تقول له : هكذا كنا نظن ونحن فى مثل سنك » .. فإنك بهذا تثبت له أن شعوره طبيعى يخامر نفس كل أحد فى مثل سنه ، وذلك غاية العذر وغاية التسويغ .

وكلمة ستيفنس صالحة للتعميم فى أحوال كثيرة غير هذه الحالة ، فإنك تسيغ شعور الشيخ ولا تنقضه حين تقول له : هكذا يشعر الشيوخ أو هكذا يتحولون عن الشعور ، ولكنك تقول عندئذ لماذا يشعرون ويتحولون ولا تقول إنه شعور باطل أو شعور صحيح .

ولو كان مدار الاعتراض من كاتب الخطاب « رشوان » أننى أنفرد لما كان فيه محل للمناقشة والتعقيب ، فتلك مسألة تخصنى ولا تعنى أحدًا سواى ، ولكنها مسألة آراء ثم مسألة الحقيقة فى بواعث تلك الآراء ، ومن هنا تصلح للتخطئة والتصويب .

كان يكفى أن أقول : ولم لا ؟ إن الرأى يختلف باختلاف السن والزمن فلم لا تختلف آرائى بين العشرين والستين ؟ ولم لا يكون هذا الاختلاف محل الإقناع ؟

إلا أن الواقع أن اختلاف السن لا دخل له هنا فى هذه الآراء ، لأننى كنت

أقول فى الخامسة والعشرين ما أقوله الآن أو قريبا مما أقوله الآن ، وكله بالأمس واليوم يدور على محور واحد : وهو الأسف على حمية الشباب أن تهدر فى غير غاية من غايات المجد والعمل ، وأن تنقلب إلى عربدة هادمة لنفسها وهادمة لغيرها ، بلا هدف ولا اجتهاد ولا جد فى تناول شئون الحياة .

فقصيدتى « شبان مصر » نظمتها وأنا فى نحو الخامسة والعشرين ونشرتها فى الجزء الثانى من الديوان وقلت فيها :

خافوا وقالوا : لنا حزم وتجربة ... إن كل ذا الحزم ما جبن الأخساء ؟
تحركوا ثم قالوا لا جمود بنا ... أين التأوه من صمت الأصحاء ؟
قد أكملوا النقص موفورًا فلا عجب ... ألا يضيقوا بتنقيص الأجلاء
هم أسرع الناس فى قدح فإن طلبوا ... ما يجلب المدح أعيوا أى أعياء
ضاق المجال بطلاب العلا فمشى ... إلى العلا كل همّاز ومشّاء

فإنكار العربدة التى لا غاية لها شعور لم أحدثه فى الستين بحكم السن كما يقول كاتب الخطاب ، وإنما هو شعور مستمد من الإيمان بالمثل الأعلى الذى يتخذه الإنسان قطبًا فى سمائه ، سواء كان فى أول الطريق أو فى نهاية الطريق ، ولا يختلف موقع القطب مع اختلاف المراحل والقدرة على السير والاتجاه .

وخليق بصاحبنا أن يذكر أسماء الثائرين الذين نجحوا فى تغيير حالة من حالات الأمم ليعلم أنهم لم يفعلوا ذلك قبل سن الأربعين على الأقل فى عهد من عهود التاريخ ، ولا حاجة بنا إلى سرد أسماء الدعاة إلى الخير أو الشر فى الزمن القديم ، إذ كانت أسماء المعاصرين أولى بالذكر فى هذا المقام لكيلا يقال إن « الظروف » تختلف من زمان إلى زمان ، وتكفى الإشارة إلى أسماء هتلر وموسوليني ومصطفى كمال وشيان كاى شيك وستالين وغاندى وسعد زغلول للفصل فى مسألة التمرد والثورة وطلب الإصلاح ، فإن مجرد الانطلاق مع الدوافع النفسية عمل سهل رخيص لا يحتاج إلى تقدم ولا إلى معرفة ولا إلى طبيعة ممتازة أيًّا كان الزمن والبيئة ، وهذا هو التمرد فى صورته الذميمة التى لا يغبط عليها إنسان . وإنما صورة المصلحة أو الثورة العاملة شىء آخر يختلف

يحتاج إلى قدرة وفهم وخبرة ودراية وليس انطلاقًا مع دوافع النفس كانطلاق الحيوان أو العناصر العمياء .

أما تمردنا على أصنام الأدب قبل ثلاثين سنة فلم يكن تمردًا بهذا المعنى المرذول ولم يكن لنا بحمد الله موقف من هذه المواقف فى زمن من الأزمان ، لأن التمرد الهدام يقوض جميع القواعد والدعائم ولا يهدم قاعدة ليضع فى مكانها قواعد أثبت وأعلى ، وقد أنكرنا أصنام الأدب لأننا أنكرنا عملهم وطلبنا عملاً أصلح منه وأوفى ، فأصلحناهم هم أنفسهم وحولناهم إلى وجهة غير وجهتهم وجعلناهم يطرقون أبواب الفنون الحية بعد أن كان كلامهم كله أو أكثره مقصورًا على المديح والرثاء وشكوى الزمان والإخوان ، وفتحنا أبواب النقد القويم بعد أن كان التعرض لشاعر كامرئ القيس أو أبى الطيب كفرًا أو جناية تعاب كما تعاب الجناية على الشرائع والقوانين ، فإن كان هذا تمردًا فنحن حتى الساعة مثابرون عليه ما ضون فى سبيله بغير وناء ..

وسيطمئن كاتب الخطاب كل الاطمئنان متى علم أننا لم نلق السلاح من أيدينا ولا ننوى أن نلقيه فى ميدان الأدب ولا فى ميدان السياسة ، ولا ندرى كيف يخطر لأحد أن يظن بمن يسفه التمرد وينعى على المتمردين ذات الشمال وذات اليمين أنه قد ألقى السلاح وأعرض عن الكفاح ، فمن يفعل ذلك يقف فى كبة المعمعة ولايلقى سلاحها ويعاف كفاحها ، وإنما يلقى السلاح من يصفق لكل داعية ويبكى مع كل ناعية ، وهم بحمد الله الذى لا يحمد على المكروه سواه غير قليلين فى صفوف المتمردين ، تارة إلى الشمال وتارة إلى اليمين ، لأنهم يتمردون خوفًا من قولة الحق ، ولا يتمردون جرأة على الحق أو على القوة . وإنهم ليهدمون بمعول غيرهم فلاهم من الأناس ولا هم من الآلات .

البساطة فى الأدب والفن

يقول الناس فى الشىء بلغ الغاية من الظهور إنه أظهر من الشمس . ويسألون ، هل شىء أظهر من الشمس ؟ ولا ينتظرون جوابًا لهذا السؤال ، لأن الشمس هى التى تظهر لنا كل شىء لكن هذه الشمس التى نضرب بها المثل فى ظهورها وانكشاف أمرها ، قد جهلها الناس زمنًا طويلًا ، ولا يزالون يجهلونها . فلو أنك سألت إنسانًا قبل ألفى سنة ماهى الشمس ؟ لقال لك إنها إله . ولو أنك سألت فيلسوفًا فى ذلك الزمن ، لقال لك إنها روح عظيم وعقل مدبر . ولو أنك تقدمت مع الزمن وسألت عنها إنسانًا من أبناء القرون الوسطى لقال لك إنها قرص فى حجم الغربال يدور حول الأرض مرة فى كل يوم .

وقد عرفنا ماعرفنا فى الزمن الحديث ، ولكننا لانزال نسأل ، من أى شىء يتولد فيها هذا الضياء الذى لاينطفئ ؟ فلا نظفر بجواب واحد نتفق عليه . يقول فريق من العلماء إنها عملية احتراق ، ويقول فريق آخر إنها تتلقى الوقود من الأجرام السماوية التى تتساقط فوقها على الدوام ، ويقول فريق ثالث إن الإشعاع فيها يتولد من تشقق ذراتها وانطلاق القوة والنور منها ، ويقولون غير ذلك ، ويجدون لكل قول مناقضة تبطله وتنفيه .

هذا من جهة العلم . أما من جهة اللغة ، فهناك أمم تذكرها بضمير المؤنث كما نفعل نحن أبناء اللغة العربية ، وهناك أمم تذكرها بضمير المذكر كما يفعل أكثر الغربيين . كذلك يختلف الناس فى الشمس التى هى مضرب المثل فى الظهور .

إن البساطة ظاهرة كالشمس ، ومحل اختلاف كالشمس ، وإن خيل إلى الأكثرين أنها لاتقبل الخلاف .

يقولون مع المتنبى :

أبلغ مـايطلب النجـاح بـه الطبع وعند التعمق الزلـل

ولكنهم يقولون أيضًا ، إن المتنبى نفسه ليس بالبسيط فى رأى معظم النقاد . ويقولون إن البساطة فى الأدب والفن مطلوبة ، لأن الجمال بسيط وكل من الأدب والفن شىء جميل . وتراهم يتفقون على أن البساطة هى الخلو من التعقيد والخلط والإبهام . وهنا ينتهى الاتفاق ويبدأ الخلاف . هنا يتم الشبه بين البساطة والشمس ، وكلتاهما ظاهرة ، وكلتاهما غير معروفة على التحقيق . البساطة مطلوبة نعم ، ولكن بالنسبة لمن ؟ ومن الذى يطلبها ولأى غرض يطلبونها ؟ .. إن الزجل الشعبى أبسط من شعر البحترى وابن الرومى ، وأبسط من شعر ملتون وبيرون ، فهل هو من أجل ذلك أجمل وأبلغ لأنه عند السامع الجاهلى شىء بسيط ؟

إن الأغنية التى يهتف بها الصبية فى الطرقات أبسط من أغانى شكسبير ، فهل هى فى مرتبة من الفن أعلى وأرفع ؟ كلا على التحقيق . فالبساطة وحدها لاتكفى للتعريف بالقول الجميل والفن الجميل ، بل ينبغى أن نعرف من هو الذى يراها ، ومن هو الذى يحكم لها بالبساطة والجمال . فلابد من الاستعداد الخاص لفهم الآداب وتذوق الفنون ، قبل النظر فى مسألة البساطة ومسألة الجمال . لتكن أيها الأديب بسيطًا .. نعم ، ولكن فى نظر من ؟ فى نظر القارئ المثقف أو فى نظر السامع الساذج ؟ فى نظر الخبير بالكلام أو فى نظر الجاهل بخير الكلام ؟ فكل من هؤلاء له بساطة يدركها ويستحسنها ، وبساطة الواحد منهم هى غاية التركيب والتعقيد عند آخرين .. إن موسيقى فاجنر ضجة مقلقة عند من يطرب للعزف على الربابة ، وإن العزف على الربابة أقل من ألف باء فى قاموس الموسيقار الكبير . فليست البساطة شيئا معروفا لذاته وإنما نعرفها حين نعرف من يتذوقها وهو على استعداد لفهمها ، وحينئذ نقول إن هذا الكلام جميل بسيط ، بسيط فى نظر من ..

هذا هو السؤال ، وبغيره لانصل إلى جواب مفيد ، كان « أناطول فرانس »

ممن يقولون ببساطة البلاغة وبساطة الجمال . والحق أنه مثل فى البلاغة البسيطة بين أعاظم الكتاب العالميين .

فإذا تحدث أناطول فرانس عن البساطة البليغة ، فهو صاحب حق فى هذا الحديث ، لأنه كاتب عظيم ولأنه مع عظمته بسيط بليغ ، على أننا نظلم أناطول فرانس إذا قسنا سهولة معانيه على سهولة أسلوبه ومفرداته ، فليس أصعب من الشعور بتاييس فى جوها التاريخى أو جوها الفنى أو جوها الذى يمتزج باللهو والعبادة ، وإن كانت كلمات الرواية أسهل الكلمات فى أساليب العظماء .

وقد بين لنا أناطول فرانس نفسه حقيقة البساطة التى يعنيها ، حين تحدث عن شرط البساطة فى الكلام الجميل ، بين لنا أن النور الأبيض بسيط جميل ، ولكنه مع هذا مركب من سبعة ألوان ، وليس معنى بساطته أنه أقل من النور الأحمر أو النور الأخضر أو سائر ألوان الطيف ، وإنما معناها أنه مركب خفى التركيب . مقارنة حسنة ، ومقارنة نستطيع أن نمضى معها إلى نهايتها ، ونهايتها هى أن نسأل عن الناظر إلى النور كما سألنا عن الناظر إلى البساطة ، فالسؤال المهم فى أمر البساطة هو : من الذى يتلقى الكلام البسيط الجميل ؟ والسؤال المهم فى أمر النور هو : من الذى ينظر إلى النور أو من الذى ينظر فى النور ؟ فلا فائدة من النور الأبيض ولا من النور الأحمر إذا كان الناظر ضعيف البصر ، أو كان الذى يتلقى النور مغمض العينين ، أو عاجزًا عن الإبصار ، إن النور الأبيض بسيط جميل . إلا أنه سبعة ألوان ولاغنى له فى الناظر به أو الناظر إليه عن عينين تبصران ، وتميزان بين الأشعة والظلال . وكذلك نور الكلام ، والمجاز هنا غير بعيد ، الكلام الذى ينير للبصائر كالضياء الذى ينير للأبصار فى اتفاق جميع اللغات وجميع ألوان المجاز ، يكون الكلام المنيربسيطًا ويكون فى تركيبه مزيجًا من سبعة ألوان ولابد له فى بساطته وتركيبه من النظر البصير .

ومصداقًا لهذا الرأى الذى أجمله أناطول فرانس نقول إنه مطابق لآراء أهل البيان والنقد فى آداب كثيرة ، تعددت فيها اللغات وأساليب الشعر والنثر ، ومنها أدب اللغة العربية .

فإن نقاد العرب الأقدمين وصفوا الكلام البليغ بأنه السهل الممتنع ، فجمعوا محاسن الكلام البليغ فى كلمتين ، هما من السهل الممتنع فى التعريف والإجمال . وفحوى هاتين الكلمتين أن الأدب قد يكون سهلا ولكنه ينقاد لطائفة من الأدباء ويمتنع عن طائفة أخرى ، وقد ينقاد لفريق من القراء ويمتنع على طوائف شتى ، وإنما المرجع فى السهولة إلى استعداد الكاتب واستعداد القارئ ، وليس هذا الاستعداد بالمطلب البسيط .

فسهولة الأدب والفن غير سهلة ، أو هى صعوبة مروضة ، ممهدة لا يستطيعها إلا من كانت له قدرة الطبيعة فى مزج الألوان وتبسيطها ، وهى التى تجمع سبعة ألوان متفرقات فى الضوء « الأبيض » البسيط ، هذه الحقيقة جديرة بإنعام النظر من الأدباء الناشئين فى هذا العصر على الخصوص .

فإن منهم كثيرين يخطئون فهم البساطة فيحسبون أن الكاتب البسيط هو الذى يرسل القول على عواهنه ، بلا دراسة ولا دراية ولاتجربة ، بل عفو الخاطر كما يقولون .

وكثيرون منهم يخطئون فهم البساطة فى موضوعات الكتابة فيحسبون أنها هى الموضوعات المبتذلة الميسرة لكل قارئ سواء كان من المثقفين أو من الأميين . ويحسبون أن القارئ المثالى هو القارئ البسيط ، ويقصدون بالقارئ البسيط من لا معرفة له ولا اطلاع ولا دراية مع أن الرجل الذى يشترى رغيفًا من الخبز لأول مرة ، لايحسن اختياره كمن اشترى قبل ذلك عشرة أرغفة ، على مرات متواليات ، والرجل الذى يخرج إلى طرقات المدينة أول مرة لايهتدى فيها كمن سار فيها أياما وضل الطريق فى بعض تلك الأيام ، وليست صناعة الأدب أبسط من الناشئ أو من حقه على نفسه أن يعرف ماهى البساطة المستحبة فى كل فن جميل ، إنها هى السهولة التى لانستطيعها إلا بصعوبة ومشقة ، ومن هذه الصعوبة الشاقة أن نستعد لها بالاطلاع ، ونستعد لها بالمرانة ، ونستعد لها برياضة الذوق والخاطر ، ونستعد لها بالإصابة والخطأ ، وبالتمييز بين كثير من الإصابات وكثير من الأخطاء .

تلك هى البساطة فى الأدب والفن ، فهل هى شىء بسيط ، نعود فتقول نعم ولكن مع الاستعداد ، وليس الاستعداد بالشىء البسيط إذا فهمنا من البساطة معنى السهولة وقلة الجهد والمثابرة ، فإن الاستعداد لهذا المطلب البعيد عناء شديد ، وجهد جهيد ، وبلوغه بغير استعداد من الفطرة والتعلم ، أبعد من البعيد .

obeikandl.com

حيرة الجيل

ومَن هو الجيل ؟ هو الشباب فى عرف هذا المصطلح ، وحيرته هى الحيرة التى يتوهمها بعض الدعاة أو بعض الأدعياء كلما نظروا إلى الحوادث التى تكررت زمنًا فى المعاهد والمدارس ، وخيل إلى أولئك الدعاة أو أولئك الأدعياء أنها حوادث الطلبة والتلاميذ أجمعين .

وهذه هى الغلطة الأولى أو الغلطة الكبرى فى تصور الحوادث وتصويرها ، وكل فهم للمسألة على هذا الوجه فهو فهم مضلل عن الحقيقة ، منحرف بالعلاج عن طريقه المستقيم .

إن الجناة فى تلك الحوادث آحاد معدودون نسبتهم إلى جملة الطلبة والتلاميذ لاتزيد على واحد فى المائة ، وهؤلاء هم الذين يفسدون الجو عامدين لأنهم يائسون من المستقبل منتفعون بالشغب ، فهم أصحاب مصلحة معروفة لايحارون فيها ولا يجهلون أسبابها ، وعندهم فى حسابهم أن الشغب أنفع لهم من النظام . بعد أن يئسوا من مستقبلهم وحسن لديهم أن يضيعوا على غيرهم .

ومتى فهمت المسألة على هذا الوجه فقد وضح العلاج وضوحًا لايترك معه محلا للحيرة ، فالواجب المفروض على المسئولين هو إقصاء ذلك النفر القليل الذى يجنى على الألوف من الأبرياء ، ولاهوادة فى هذا الأمر ولاتردد . لأن كل هوادة فيه هى قسوة على الأرواح والعقول فى جيل كامل ، وهى قسوة على الآباء والأبناء والحاضر والمستقبل إلى أمد بعيد .

ليست هناك حيرة على الإطلاق فى هذه المسألة ، بل هناك أشرار معدودون على الأصابع فى كل معهد يعرفون مايصنعون ولايحارون فيه ، وحسبتهم صحيحة

من وجهة نظرهم العوجاء ، فهم خائبون يستغلون خيبتهم ويأخذون أجرًا عليها حيث لايرجون أجرًا من النظام ومن الدراسة ، وقد يشفى نفوسهم الملتوية أن يضيعوا الأمل على الناجحين ، فلا نجاح لهم ولا للآخرين !

أما « المنقادون » لأولئك المشاغبين فهم مظلومون حين يقال إنهم منقادون .

فالمشاهد فى كل حركة « مشاغبة » أن عشرة متفقين على الشغب يستطيعون أن يوقعوا الشغب بين مئات متفرقين ، يقفون من الأمر موقفًا « سلبيًا » ويفاجَئون بالفتنة وهم مشتتون فى المعاهد أو فى خارجها .

فمن أولئك المتفرقين من يجتنب الفتنة ويتنحى عنها ، ومنهم من يؤخذ بالضجة وتسرى إليه عدوى الجماعة فينساق معها ، ومنهم من يخجل من التخلف لأنه يحسبه جبنًا ويقع فى روعه أن دعاة الفتنة مخلصون فيما يتصايحون به من الكلمات الطنانة ويرددونه من الأصداء المتجاوبة ، ومنهم من يسأل نفسه : ماذا يصنع ؟ فلا يدرى شيئًا يصنعه أيسر عليه فى تلك اللحظة من الانطلاق مع التيار .

أيقال إن هـذه الظاهرة الاجتماعية خاصـة بالجيل الحاضـر أو بالقـرن العشرين ؟

إن قيل هذا فهو كلام فارغ لاسند له من الواقع أمامنا ولا من التاريخ الذى نرجع إليه فى العصور القريبة أو البعيدة .

لقد حدث هذا – أو حدث أمثال هذا – فى أجيال كثيرة من تاريخ مصر وتواريخ الأمم الأخرى ، وكل ماهنالك من فارق بين جيل وجيل أن « الأجواء الاجتماعية » تختلف مع الزمن اختلافًا لاعلاقة له بالتقدم فى القرن العشرين ولابالتأخر عشرين قرنًا قبل الميلاد .

فلم تكن فى العالم « حيرة » تقدم وارتقاء حين نشأت « التابوات » والمحظورات والتمائم والضحايا بين القبائل الهمجية الأولى .

وما نشأت هذه « الموانع » الاجتماعية فى قبيلة قط إلا لغرض غالب على كل غرض : وهو مقابلة الدوافع فى نفوس الشباب بما يضبط حركتها ويحول بينها وبين الفوضى .

والحقيقة الثابتة فى جميع الأزمنة أن الشباب فى جملته لايحار ولا يهتدى من الحيرة . ولكنه ينتظم حين يجد النظام ، ويعجز عن تنظيم نفسه إذا لم يجده ، فينطلق مع الأهواء .

من المضحك أن يتخيل المتخيل أن الأجيال الناشئة تجلس إلى نفسها فى أول كل حقبة لتبحث فى الأصول والفروع وتوازن بين وجوه الهدى ووجوه الحيرة ، ثم تقرر الانطلاق مع الهوى أو السكون إلى النظام .

ومن المضحك أن يتخيل المتخيل أن الجيل الجديد جديد فقط فى القرن العشرين ، ولن يكن جديدًا فى القرن العاشر بعد الميلاد أو قبل الميلاد ، فكل جيل جديد هو جيل جديد فى كل زمن وفى كل حقبة ، وقد تكون المسافة بين السابق واللاحق فى القرون الأولى أو سع جدًّا من المسافة بين السابق واللاحق فى عصرنا هذا ، لأن اختلاف خمسين سنة فى العصور الغابرة قد يأتى بالغريب الذى لاعهد للناس بمثله ، ولكننا نحن منذ خمسين سنة فى مجال واحد من المخترعات العلمية ، لاتروعنا الطيارة التى تسبق الصوت إلا كما راعتنا الطيارة التى تتعثر فى الهواء ولاتزال تعلو وتهبط فى كل رحلة .

نعم إن حظ الشباب من العلم فى القرن العشرين أوفر من حظه فى القرن السابع عشر وما قبله ، ولكن فائدة هذا الحظ الوافر أقل جدًّا من فائدة الحظ القليل فى الماضى ، كما أن الدنانير القليلة ثروة فى القرية الصغيرة ولكنها فقر مدقع فى العاصمة الكبرى .

فالنسبة محفوظة كما يقال بين الأجيال المتعاقبة ، وقد وقف كل جيل فى مفترق الطرق كما يقف الجيل الحاضر على درجات متقاربة بين دواعى الهدى ودواعى الضلال .

وكلما وجد فى العالم من يستغل التضليل بالعقول الناشئة وجد الضلال الذى يحتكره بعضهم اليوم للقرن العشرين .

لقد وجد هذا الضلال فى عهد حسن بن الصباح ، ووجد قبله فى عهد القرامطة ، ووجد قبله فى عهد الأورفيين ، ووجده هتلر فى هذا العصر فساق به ثمانية ملايين إلى الهلاك .

وإذا بدا لنا أن عصرنا هذا خاص « بالحيرة » المزعومة فهى مسألة ظروف لامسألة أصول كامنة فى النفوس برزت للناس فجأة فى القرن العشرين .

من هذه الظروف تجمع الألوف من الشبان فى مكان واحد تارة فى المعهد العلمى وتارة فى المعمل الصناعى وتارة فيما شابه المعهد والمعمل من المجامع الموقوتة أو الدائمة .

ومن هذه الظروف أن شبابنا المتعلمين ينهضون بأعباء المعيشة بعد الخامسة والعشرين ، ويقضون سنواتهم الأولى معفين من الأعباء يهتدون كما يشاءون ويحارون كما يشاءون ، وقد كان أمثالهم يحملون المسئوليات وهم بين الخامسة عشرة والعشرين ، فيعرفون معنى المسئولية قبل أن يعرفوا دوافع الدعوى والغرور .

ومن هذه الظروف أن التغرير بالشباب أصبح نافعًا للمتجرين بالنفوذ فى عصر الديمقراطية ، ولم يكن لأحد منفعة فى هذا التغرير إلا على سبيل الندرة والشذوذ .

ومن هذه الظروف أن جرعة الحرية فى العهود الديمقراطية قوية على العقل الناشئ . إذ المطلوب من العقل الحر أن يسمع الأقوال المتضاربة ويحكم بينها ، ولكن العقل الناشئ فى زماننا يسمع الطعن من هنا وهناك ويسمع هذا الزعيم ينحى عن ذلك الزعيم ، ولا يستطيع أن يحكم بينهم فيسقطهم جميعًا بغير تفرقة بين الصدق والكذب وبين النفع والضر وبين من يصدق فى شىء ويكذب فى شىء آخر ، ولاملامة على الأمم الديمقراطية فى هذه الطبيعة البشرية ، وإنما الملامة على العقل الناشئ الذى يركبه الغرور فلا يتهم نفسه بالعجز عن الفصل فى هذه القضايا بل يتهم القضايا والقضاة أجمعين ، وليس يخلو من اللوم أولئك المغفلون أو أولئك الدَّجاجلة الذين يفرضون على الديمقراطية أن تبطل خلافاتها ليستطيع « الناشئ الحائر » أن يحكم بين دعاتها ، أو يطلبون من « المشكلة » أن تحل نفسها ليستطيع « الناشئ الحائر » أن يحلها ولايحار بين نقائضها وأضدادها ، ومثلهم فى ذلك مثل الذى يعيب العلوم العصية فيأمر بإلغائها ، ولايأمر المتعلم القاصر أن ينتظر حتى يقدر على فهمها والإحاطة بمعانيها .

فليس الناشئ العصرى بدعة من البدع كما يروق المغررين به أن يدخلوا فى روعه ، ولكنها ظروف تعمل عملها فى القرن العشرين وقد عمل بعضها مثل هذا العمل فيما غبر من القرون ، وليس علاجها الإملاء فى الغرور والتشجيع على الدعوى ، بل علاجها تعليم الناشئين أن يتواضعوا أمام الحقائق العظمى التى يواجهونها ، وأن يفهموا أن عجزهم عن الفصل فى وجوه الخلاف يدعوهم إلى الانتظار والاستزادة من المعرفة والخبرة ، وليس من حق العجز أن يدعوهم إلى التعجل والانفراد بحل المشكلات أو طلب الحل الذى لايفهمون وهم يطلبونه كيف يكون .

لاحيرة فى طبيعة هذا الجيل ، وإن كانت هناك حيرة فليس من حق الحائر أن يملى إرادته ويفرض على الدنيا مالايعرفه ، ولسنا نطلب من الشباب الحائر أن يهدى نفسه ، ولكننا نعيب على المضللين أن يغرروا به ويدفعوا بهذه العقول الناشئة فى طريق الفوضى والاختلال .. وليس أضر على الشيخ المحنك من الغرور ، فكيف بالغرور فى النفس الفتية على مفتتح الحياة !